بين العقاد والرافعي

غزل العقاد

للأستاذ سيد قطب

— ١٤ —

لا يزال صاحبنا « النمراوى » ماضياً فى طريقه ، عند السفح من مدارج الاحساس والفن والحياة . وما يزال يظن المسألة ردوداً ومحالا . بينما نحن لم نرد إلا أن ينتفع هو وأمثاله ومن هم خير منهم كذلك بما نكتب ، وأن يخرجوا قليلا من ذلك الطابق المغلق الذى يتزوون فيه ، إلى عالم النور والطلاقة والفن الجميل ، المتحرر من القيود والقشور ، فيحسوا — ولو مرة — دفقة الحياة ، وطلاقة الفن ، وفسحة الشعور. ومن حسن الحظ أن يكون الحديث اليوم عن « غزل العقاد » فليحاولوا أن يثبوا ونحن نأخذ بيدهم إلى هذا « العالم » البعيد الفسيح . وإلا فليعذرونا إن نحن جاوزنا الجعور والمناور ، إلى المرج الواسع ، أو الميلم المسجور !

الاحساس الساذج الفطرى بالحب قريب فى منبته من إحساس الجوع والظمأ ، ومطلب قريب لا يعلو كثيراً على مطالب الجسد ؛ والمتعة فيه غذاء من أغذية الفم واللحم ، والحرمان نوع من الخمص والطوي ، والآلام لون من وخز الجلد أو لذع النار ، أو لفحة السموم. والتعبير عن كل ذلك شبيه بالضحكة والصرخة والآهة والأنين ، من أنواع التعبير الفطرى عن اللذة والألم

والشاعر حين يقف فى إحساسه بالحب ، أو التعبير عنه ، عند هـذا الحد لا يستحق منا لقب الشاعر — بله الشاعر الكبير — وهو لا يستحق هذا اللقب ، حتى يكون له فى حبه منحي خاص (ليكون شاعراً) وفلسفة شاملة تجعل من هذا الحب مجتمعاً للأحاسيس الفريدة بأعماق الحياة وأصولها وتتصل بوشائج الطبيعة الكبرى ، وغاياتها البعيدة ، وأغاطها الأصيلة (ليكون شاعراً كبيراً)

فليس الحب الفنى ، ولا التعبير عنه من السهولة كما يتصورها الكثيرون من ناشئة الشعراء ، ومقلدي النقاد ، إنما هما عمل عسير فى الاستيعاب والتصوير ، وما نقرأ لتسعين فى المئة من الشعراء ، إلا ضحكات وابتسامات أو صرخات وآهات ، يحسبونها غاية الحب وغاية التعبير !

لا تقل : إننى أحب ؛ وإننى أستمتع بالحب ، أو أتعذب وأتألم ثم تحسب نفسك شاعراً ، حتى تقول لنا : إننى أحب على لون خاص ، وأستمتع بالحب بطريقة خاصة ، أو أتعذب وأتألم على لون من ألوان العذاب والآلام . ولا تقل : « أنا أطلب الجمال » وتسكت فلا بد أن تبين لنا ما نوع الجمال أو أنواعه التى تستهويك ، وما المعانى التى يشعها فيك هذا الجمال ، وماذا تفهم من الصلات بينه وبين غايات الحياة الكبرى ، وماذا بينه من الوشائج وبين الطبيعة فى كيانها ومراميها

والعقاد وحده فى الشعر العربى كله هو الذى يقول لنا هذا فى عمق ودقة وقصد ، ويصوره بأوضح وأصح ما يستطاع. وأقول « فى الشعر العربى كله » وأنا أعنى ما أقول ، فما يوجد شاعر واحد يجتمع له فى شعره العربى ما اجتمع للعقاد ، وتتوفر فى نفسه هذه الأوتار المتعددة ، التى يوقع عليها الحب هذه النغمات كلها ، ويخرجها هكذا واضحة سليمة

نعم ، يوجد بعض هذه الأوتار ، متفرقاً فى نفوس الشعراء ولكنها لا تجتمع هذا الاجتماع ، ولا تلتئم هذا الالتئام فى نفس واحدة ، وما يوجد منها متفرقاً لا يبلغ فى تفرده وخصوصه وطرافته هذا المبلغ عند أولئك الشعراء

فاذا خطر لأحد أولئك الذين يغرون أفواههم لسماع هذا الكلام ، ويستنكرون تقرير الحقائق وليس لهم من البرهان على إنكارهم إلا إشارات الصم البكم ، فليأتوا بانظائر لكل هذه الأوتار والنغمات لشاعر عربى واحد حتى الآن ، أو لعشرة مجتمعين فى جميع العصور

* * *

وقبل أن نعرف « ما الحب » عند العقاد ، لا بد أن نعرف « ما الجمال » الذى يثير هذا الحب ، ويدفعه إلى الغزل والتعبير عرف القراء مما نقلناه عن رأى « شوبنهور » فى الجمال ، وتعليق « العقاد » عليه ، أنه يرى الجمال فى « الحرية » وفى العدد الفائت من الرسالة توضيح لهذا الرأى حين يقول :

« رأيى فى الجسم الجميل أنه الجسم الذى لا فضول فيه ، وأنه

الجسم الذي تراه فيخيل إليك أن كل عضو فيه يحمل نفسه غير محمول على سواه

« من هنا جمال الرأس الطامح والجيد الشرئب ، والصدر البارز ، والخصر المرهف المشوق ، والردف المائل ، والساق التي يبدو لك من خفتها وانطلاقها واستوائها ، أنها لا تحمل شيئاً من الأشياء ولا تنهض بعبء من الأعباء »

ويقول من الكلمة نفسها في وصف فتاة :

« على شاطئ الاسكندرية ـ والصادفة من أجل الصادفات ـ طيارة في الهواء ، وفتاة على الأرض هي أولي بالطيران من تلك الحديدة الصاعدة ، بل هي تطير ولا يتخيلها الناظر إلا طائرة ، تفلت من لحظات العيون ، وخطرات الأرواح

« لا تحس العين أنها أدركتها ، لأنها إذا أدركتها تأملت فيها ، وسرحت في معانيها ، فاذا هي بعيد بعيد ، أبعد من الفراش الذي يقع عليه الطفل ، فاذا هو على الغصن ، ويثب إليه في غصته فاذا هو في الهواء »

وقد عثرت أخيراً في الديوان على امتداد لهذا الرأي ، يريد أن تبلغ الحرية بالجمال ألا يشعرنا حين ننظره بتعلقنا وتقييدنا به ، بل يطلقنا نسبح في الآفاق ، ونسمو على الحدود والقيود

والجميل الحق ما يذهلنا عنه ، لا ما فيه للحس إسار

والجمال عوض عن شين كثير من النفوس في هذه الحياة ، وتكفير منها عن هذا الشين ، كما أنه رمز لآمال الحياة في مستقبلها الموموق ، تشير به إلى ما يختلج في صدرها من الشوق للكمال :

أغلى جمالك في النواظر أنه عوض لشين في النفوس كثير
وأنالهُ منّا المقادةَ أنه في الأرض رمز كمالها المحظور

وفي الجمال غناء عن الدنيا كلها ، وهو نعيم قريب كالنعيم المتخيل في الآخرة كذلك ، فهو نعيم الدنيا حين يقول :

إن نفوّتي اليوم من دنياهمو وأباحوا لي من الزاد المرام
ثم قالوا ما تشا منها فخذ قلت : هذا . وعلى الدنيا السلام
قلت : هذا ، وتطلعت إلى هوة الغيب وفي الثغر ابتسام
كيف لا يبسم من قبلته تنظم الأوطار طرا في نظام ؟
وإذا قبلتـه مستضحكا في تخوم الكون والكون سدام
فهو سخرى بالذي ودعته واغتباطي بمقاسي حيث قام

وهو نعيم قريب كنعيم الآخرة البعيد حين يقول :

أيها الباحث عن كوثره في السموات . لقد شط المزار
إنما الكوثر ثغر باسم من حبيب لك مأمون النفار

والوجه الجميل ، هو « الصدق » في هذه الحياة ، الذي ينفي عن النفس الريب والشكوك فيها

لك وجه كأنه طابع الصدق على صفحة الزمان المثوف
إن يوماً يمر بي لا أراه هو يوم أعده في الزيوف

وهو كذلك داعية الرجاء في هذه الدنيا ، ومنبع التفاؤل والقبول :

أرى لك أنت فلسفة صراحا بلمح العين أقرؤها جميعا
أذم العيش في ألفي كتاب وتعرضُ لي فأمدحه سريعا !

والجمال هو الفضيلة ، أو الفضيلة هي الجمال :

شرعك الحسن . فما لا يحسن فهو لا يحلو وإن حل الحرام
ليس في الحق أثام بيّن غير مسخ الحسن أو نقص التمام
ما عدا هذين مما يمكن فاستبحه وعلى الدنيا السلام

ولهذا يحلل الجمال كل شيء ، ويمنحه الفضيلة والعفة والثناء :

كل الثياب لمن يزينُ ثيابَه عفٌّ حميد !

والجمال حرم مقدس يحترمه الخصوم والأصدقاء ويلقون لديه السلاح حيث لا تصنع ذلك المعاهدات و « عصبة الأمم » والشرائع والقوانين :

حرم بميدان الحيا : وملجأ لا يعتسف

والجمال الانساني يرقرق جمال الكون ويصفيه ، ويظهره خلاصة نقية :

لا أرى الدنيا على نور الضحى حبذا الدنيا على نور العيون
هي كالراووق للنور فلا نور إلا صفوها المذب المصون

وهذا الجمال خلاصة جمال الدنيا ، وخلاصة تجارب الحياة في مثل الكمال . وله في هذا قطعتان بارعتان : الأولى بعنوان «نشوء وارتقاء» ، يتحدث فيها عن جميل كان موقفه في الشتاء :

زانك الله بعفو وسلام يا شتاء
طال بي فكر الليالي أو ما فيك عزاء ؟

* * *

قال لي : هاك فخذها زهرة مني إليك

ذات حسن وحياء ولها فضل لديك
وسمت بالفكر فاقبس[1] فكرة فى راحتيك
قلت : حقًّا يا شتاء هى حسن وحياء
غير أنى وهى صمت ليس لى فيها عزاء

* * *

قال : يرضيك إذن شا دٍ من الطير مجيد
هو للجنة يدعى وله منها نشيد
يعشق الليل وإن لم يك فيه يوليد
قلت : حقًّا يا شتاء هو حسن وغناء
غير أنى وهو صوت ليس لى فيه عزاء

* * *

قال : يرضيك إذن سا دٍ من البرق بشير
يصدع الظلماء ، يزجى عارض الغيث ، ينير
فيه من قلبك نبض ومن اللمح سمير
قلت : دعنى يا شتاء من شعاع فى فضاء
أنذا جاد بغيث كان لى فيه عزاء ؟

* * *

قال : والشمس فما ظنك بالشمس ذكاء ؟
كلما عدت بها سبـ ح عشاق السماء
قلت : حقًّا يا شتاء هى نور ورجاء
غير أنى وهى صبح ما عزائى فى المساء ؟

* * *

قال لى: أنفدت كنزى كله بين يديك
غير ذخر من بنى الانسان أبقيه عليك
فيه من صبح ومن ليل قصارى غايتيك
أتراه ؟ قلت : حقًّا هو فى الدنيا العزاء
هو حب وحياة وربيع يا شتاء !

* * *

من بنى الانسان فى ذا ت شتاء ولدا
زينة للعين والقـ ب وللقلب بدا

(١) زهرة « البنسيه » أي الفكرة

طاهر كالمزنة البيضا ء صاف كالندى
كنبات الروض مغتـ ن الحلى جم الحياء
وارف كالظل محيٍ فى شذاه كالهواء

* * *

يا شتائى فيم إخفا ؤك هذا السر عنى
أى روض أى برق أي شمس فيك أعنى
أنا مستغن به عنـ ما فماذا عنه يغنى ؟
قد تعلمتَ وأيقنـ ت أفانين السخاء
منذ عشرين وخمس من سنى الدهر سواء

* * *

تم عندى كل ما تهـ طلي إذا تم العطاء
وجميل كل بدء ينتهى خير انتهاء
وجميل زهرك النا مى على هذا النماء
صدق العلم وقال الـ حب حقًّا يا شتاء
سنة الزهر نشوء فى المعانى وارتقاء

هذه قطعة لا أجدنى مضطراً لشرح ما فيها من الجدة والطرافة ، فوق الدلالة على فكرتها المقصودة ، وفوق تناسقها الفنى مع طبيعة الشتاء التى لا تمنح ذخرها إلا ذرة ذرة على ضن وبخل . فمن لم يحس هذا كله بمجرد قراءتها ، فخسارة ألف خسارة أن نضيع الوقت فى أن نخلق له إحساساً وما نحن بقادرين . وأما الثانية فبعنوان « الثوب الأزرق » وهى كزميلتها فى الطرافة البارعة :

الأزرق الساحر بالصفاء تجربة فى البحر والسماء
جرّبها « مُفصّل » الأشياء لتلبسيه بعد فى الأزياء
بجوّد الاتقان والرواء ما ازدان بالأنجم والضياء
ولا بمحض الزبد الوضاء زينتيه بالطلعة الغراء
ونضرة الخدّين والسماء ولمعة العينين فى استحياء
إن فاتنى تقبيله فى الماء وفى جمال القبة الزرقاء
فلى من الأزرق ذى البهاء يخطر فيه زينة الأحياء
مُقبّلٌ مبتسم الأضواء مردّد الأنغام فالأصداء
وقبلة منه على رضاء غنى عن الأجواء والأرجاء
وعن شآبيب من الدأماء وعنك يا دنيا بلا استثناء

وغير هاتين القصيدتين كثير من الحديث عن هذه الفكرة الصحيحة الطريفة مثل :

وكل ما فى الكون من روعة لها نظير فيك حيّ جديد
بل أنت دنيا غير هذى الدنى وكل حب فيك كون وليد

ويقول عن القمرى :

وللأناسى حسن لا أبوح به هل تعرف الطير ما حسن الأناسى
غنت زهر وسلسال ولو رشفت ثغر الباسم جنت بالأغانى

لذلك فالكون حتى بهذا الجمال الانسانى تخور به :

فلو لم تولّ القلبَ شطرك لامنا على الجهل كون بالجمال تخور

ويتضح هذا فى قصيدة « عيد ميلاد »

تهيأ الكون من قديم ليوم ميلادك السعيد
فعابد الكوكب العظيم أحيى ببشراك يوم عيد
ومولد « السيد » الرحيم وافقه المولد الجديد
يوم تهدّى على المديح وزفه الخلد بالثناء
فالدهر فى عمره الفسيح عوّده البشر والدعاء

والاله حقّ كذلك بهذا الجمال ، فقد تبارت الشعراء فى مزاياها ، وتقدم جبابرة العالمين يُدلون بقوتهم ونادى العبقريون الملهمون بمزاياهم :

وأقبل سرب الظباء اللا ر ح رخيم البغام مليح الكحل
فقال وفى قوله لثغة كأنك ترشف منها العسل
لنا القول فيكم رجال الكلا م لنا القول فيكم رجال العمل
لمسنا شفاها ففاضت سنى وجرنا على جائر فاعتدل
ومنا تذوقون طعم الحيا ة وهل طعمها غير طعم القبل
تسمونها قبلة واسمها رحيق الخلود وريا الأمل

فاذا تظنه كان رأى الاله الذى جلس ليحكم فى المباراة ؟

فأطرق ربهمو لحظة ونادى بأقربهم فامتثل
وقبّل مبسمه قبلة تضرم منها مكان الخجل
وقال : أجل ! تلك أغلى الشفا ه فأصغوا جميعاً وقالوا : أجل !

ومتى برز هذا الجمال الانسانى ، فقد بطل كل جمال ، حتى نظم الشعر الذى يستعز به العقاد ، فهو يخاطب « جيرة البحر » بعد أن سمعهن « المانى الحية » وبعد أن قال لهن : إن الاله والبحر والشمس وهبوا لمن هبات وافرة :

ورأيت رفرفة النسيم على الجسوم الطائرة
فالآن ماذا تنظرون من النفوس الشاعرة
لم يبق فى كنز الخيال بقية من نادرة
برزت معانى الشعر فى ثوب الحياة الظاهرة
أنتم معانيه فما تغنى النفوس الحائرة
أنتم عرائسه وها نيك السارح عامرة
هيهات ما لمثل أو شاعر من خاطرة
ما الترجمان وتلك أسْـرار التراجم سافرة
فإذا بخلنا بالقصيد فعاذر أو عاذره

ومتى كان ذلك شأن الجمال الإنسانى البارع ، فهو يخاطب جميلا :

يغنيك حسن أنت لابس تاجه عن دولة السفاح والاسكندر

وما على الفنان إذن إلا أن يسمع نصيحته الشاعرة :

قسم حياتك بين حسن بارع يذكى الحياة وحكمة تنميها
مافى سوى الحظين من أمنية للمرء ينشدها ويستبقيها

وإنه ليعيش هكذا ؛ وقد فهم الجمال ، وعرف صنوفه ، ولاحظه فى كل جميل ، وانتهى فيه إلى رأى ، وعلم غاية الحياة منه وقصد الطبيعة فيه ، على هدى وبصيرة

* * *

هذه أبيات متفرقة أو قصائد كاملة عرضناها عرضاً سريعاً وهى ليست كل شىء فى ديوان العقاد من مجرد « تعريف الجمال » عنده ، وهى وحدها ذخيرة نفسية وغزلية ، لو قالها شاعر وسكت ، لكان شاعراً كبيراً ممتازاً ، وهى مع ذلك نصف « القدمة » للكلام عن « غزل العقاد » !

وما من شك أن الإحساس بالجمال هكذا ، عمل متعب عسير ، غير ميسور لكل الطبائع ، وهو فى حاجة إلى طبيعة عميقة ، ونفس فسيحة ، وشعور واغل فى قلب الحياة ، يسمع نبضاته ، ويحس آماله ، ويستشعر أشواقه ، ويشاركه خفقه وهو ينبض بالجمال

وقد استغرق هذا حديث اليوم كله ، فأما رأى العقاد فى « الحب » فسأتناوله فى حديث آخر ، وحينئذ نخلص إلى « غزل العقاد » فى هينة واطمئنان

(حلوان) سيد قطب